قواعد العقائد ، اذ المخطىء فيه غير معذور ، فكيف السبيل اليه ؟ » فأقول : « قواعد العقائد يشتمل عليها الكتاب والسنة ؛ وما وراء ذلك من التفصيل ، والمتنازع فيه ، يعرف الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم . وهي الموازين التي ذكرها الله (تعالى) في كتابه ، وهي خمسة ذكرتها في «كتاب القسطاس المستقيم . » فإن قال : « خصومك يخالفونك في ذلك الميزان . » فأقول : « لايتصور أن يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه ، [اذ لا يخالف فيه] أهل التعليم ، لاني استخرجته من القرآن وتعلمته منه ، ولا يخالف فيه أهل المنطق ، لانه موافق لما شرطوه في المنطق ، غير مخالف له ؛ ولا يخالف فيه المتكلم لانه موافق لما يذكره في ادلة النظريات ، وبه يعرف الحق في الكلاميات . » فإن قال : « فان كان في يدك مثل هذا الميزان فلمَ لا ترفع الخلاف بين الخلق ؟ » فأقول : « لو أصغوا إلي لرفعت الخلاف بينهم ؛ وذكرت طريق رفع الخلاف في كتاب القسطاس المستقيم ، فتأمله لتعلم أنـــه حق وأنه يرفع الخلاف قطعاً لو أصغوا ولا يصغون [اليه] بأجمعهم ! بل قد أصغى إلي طائفة ، فرفعت الخلاف بينهم . وإمامك يريد رفع الخلاف بينهم مع عدم اصغائهم ، فلمَ لم يرفع الى الآن ؟ ولمَ لم يرفع علي ، رضي الله عنه ، وهو رأس الائمة ؟ او يدعي أنه يقدر على حمل كافتهم على الإصغاء قهراً ، فلمَ لم يحملهم الى الآن ؟ ولأي يوم اجله ؟ وهل حصل بين الخلق بسبب دعوته الا زيادة خلاف وزيادة مخالف ؟ نعم ! كان يخشى من الخلاف نوع من الضرر لا ينتهي الى سفك الدماء ، وتخريب البلاد وايتام الاولاد ، وقطع الطرق ، والإغارة على الاموال . وقد حدث في العالم من بركات رفعكم الخلاف [من الخلاف] ما لم يكن بمثله عهد . » فإن قال : « ادعيت أنك ترفع الخلاف بين الخلق ولكن المتحير بين المذاهب المتعارضة ، والاختلافات المتقابلة ، لم يلزمه الإصغاء اليك دون خصمك ، واكثر الخصوم يخالفونك ، ولا فرق بينك وبينهم . » وهذا هو سؤالهم الثاني ، فأقول : « هذا اولاً ينقلب عليك ، فإنك اذا دعوت هذا المتحير الى نفسك فيقول المتحير ،

بم صرت اولى من مخالفيك ، واكثر اهل العلم يخالفونك ؟ فليت شعري ! بماذا تجيب ؟ أتجيب بأن تقول : إمامي منصوص عليه ؟ فمن يصدقك في دعوى النص ، وهو لم يسمع النص من الرسول ؟ وانما يسمع دعواك مع تطابق اهل العلم على اختراعك وتكذيبك . ثم هب أنه سلم لك النص ؛ فإن كان متحيراً في اصل النبوة ، فقال : هب ان امامك يدلي بمعجزة عيسى عليه السلام فيقول : الدليل على صدقي أني أحيي أباك ، فأحياه ، فناطقني بأنه محق ، فبماذا اعلم صدقه ؟ ولم يعلم كافة الخلق صدق عيسى عليه السلام بهذه المعجزة ، بل عليه من الاسئلة المشكلة ما لا يدفع الا بدقيق النظر العقلي ؛ والنظر العقلي لا يوثق به عندك ، ولا يعرف دلالة المعجزة على الصدق ما لم يعرف السحر والتمييز بينه وبين المعجزة ، وما لم يعرف أن الله لا يضل عباده . — وسؤال الإضلال وعسر [تحرير] الجواب عنه مشهور — فبماذا تدفع جميع ذلك ؟ ولم يكن امامك أولى بالمتابعة من مخالفه ! » فيرجع الى الادلة النظرية التي ينكرها ، وخصمه يدلي بمثل تلك الادلة واوضح منها . وهذا السؤال قد انقلب عليهم انقلاباً عظيماً ، لو اجتمع أولهم وآخرهم على أن يجيبوا عنه جواباً لم يقدروا عليه .

وانما نشأ الفساد من جماعة من الضعفة ناظروهم ، فلم يشتغلوا بالقلب ، بل بالجواب . وذلك مما يطول فيه الكلام ، وما لا يسبق سريعاً الى الافهام ، فلا يصلح للإفحام . فإن قال قائل : « فهذا هو القلب ، فهل عنه جواب ؟ » فاقول : « نعم ! جوابه أن المتحير لو قال : انا متحير ، ولم يعين المسألة التي هو متحير فيها ، يقال له : انت كمريض يقول : انا مريض ولا يعين مرضه ، ويطلب علاجه . فيقال له : ليس في الوجود علاج للمرض المطلق ، بل لمرض معين : من صداع او اسهال او غيرهما . فكذلك المتحير ينبغي أن يعين ما هو متحير فيه ؛ فإن عين المسألة عرّفته الحق فيها بالوزن بالموازين الخمسة ، التي لا يفهمها أحد الا ويعترف بانه الميزان الحق ، الذي يوثق بكل ما يوزن به ، فيفهم الميزان ،

ويفهم منه ايضاً صحة الوزن ، كما يفهم متعلم علم الحساب نفس الحساب ، وكون المحاسب المعلم عالماً بالحساب وصادقاً فيه » . وقد أوضحت ذلك في كتاب « القسطاس المستقيم » في مقدار عشرين ورقة ؛ فليتأمل .

وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم ، فقد ذكرت ذلك في كتاب « المستظهري » اولاً ؛ وفي كتاب « حجة الحق » ثانياً ، وهو جواب كلام لهم عُرض علي ببغداد ؛ وفي كتاب « مفصل الخلاف » الذي هو اثنا عشر فصلاً ثالثاً ، وهو جواب كلام عُرض علي بهمدان ؛ وفي كتاب « الدرج » المرقوم «بالجداول» رابعاً ، وهو من ركيك كلامهم الذي عرض علي بطوس ؛ وفي كتاب « القسطاس المستقيم » خامساً ، وهو كتاب مستقل مقصوده بيان ميزان العلوم واظهار الاستغناء عن الامام [المعصوم] لمن أحاط به .

بل المقصود أن هؤلاء ليس معهم شيء من الشفاء المنجي من ظلمات الآراء ، بل هم ، مع عجزهم عن اقامة البرهان على تعيين الإمام ، طال ما جاريناهم فصدقناهم في الحاجة الى التعليم والى المعلم المعصوم وأنه الذي عينوه ، ثم سألناهم عن العلم الذي تعلموه من هذا المعصوم وعرضنا عليهم اشكالات فلم يفهموها ، فضلاً عن القيام بحلها ! فلما عجزوا أحالوا [على] الإمام الغائب ، وقالوا : « (انه) لا بد من السفر اليه . » والعجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم وفي التبجح بالظفر به ، ولم يتعلموا منه شيئاً أصلاً ، كالمتضمّخ بالنجاسة ، يتعب في طلب الماء حتى اذا وجده لم يستعمله ، وبقي متضمخاً بالخبائث .

ومنهم من ادعى شيئاً من علمهم ، فكان حاصل ما ذكره شيئاً من ركيك فلسفة فيثاغورس : وهو رجل من قدماء الاوائل ، ومذهبه ارك مذاهب الفلسفة ، وقد رد عليه ارسطاطاليس ، بل استركّ كلامه واسترذله ، وهو المحكي في كتاب « إخوان الصفا » ، وهو على التحقيق حشو الفلسفة

فالعجب ممن يتعب طول العمر في طلب العلم ثم يقنع بمثل ذلك العلم

الركيك المستغث ، ويظن بأنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم ! فهؤلاء ايضاً جربناهم وسبرنا ظاهرهم وباطنهم ؛ فرجع حاصلهم الى استدراج العوام ، وضعفاء العقول ببيان الحاجة الى المعلم ، ومجادلتهم في انكارهم الحاجة الى التعليم بكلام قوي مفحم ، حتى اذا ساعدهم على الحاجة الى المعلم مساعد ، وقال : « هات علمه وأفدنا من تعليمه ! » وقف وقال : « الآن اذا سلمت لي هذا فاطلبه ، فانما غرضي هذا القدر فقط . » اذ علم انه لو زاد على ذلك لافتضح ولعجز عن حل أدنى الاشكالات ، بل عجز عن فهمه ، فضلاً عن جوابه .

فهذه حقيقة حالهم فاخبرهم تَقْلُهم فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم (ايضاً).

٤ ـ طرق الصوفية

ثم اني ، لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتي على طريق **الصوفية** وعلمت أن طريقتهم انما تتم بعلم وعمل ؛ وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس . والتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل (بها) الى تخلية القلب عن غير الله (تعالى) وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر عليّ من العمل . فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل : « قوت القلوب » لأبي طالب المكي (رحمه الله) ، وكتب « الحارث المحاسبي » ، والمتفرقات المأثورة عن « الجنيد » و « الشبلي » و « ابي يزيد البسطامي » [قدس الله ارواحهم] ، وغيرهم من المشايخ ؛ حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن ان يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع . فظهر لي أن أخص خواصهم ، ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات . وكم من الفرق بين ان تعلم حد الصحة وحد الشبع واسبابهما وشروطها ، وبين ان تكون صحيحاً وشبعان ؟ وبين ان تعرف حد السكر ، وانه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء ابخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين ان تكون سكران ! بل السكران لا يعرف حدّ السكر وعلمه وهو سكران وما معه من علمه شيء ! والصّاحي يعرف حدّ السُكر واركانه وما معه من السكر شيء . والطبيب في حالة المرض يعرف حدّ الصحة واسبابها وأدويتها ، وهو فاقد الصحة . فكذلك فرقٌ بين ان تعرف حقيقة الزهد وشروطه واسبابه ، وبين ان تكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا !

فعلمت يقيناً انهم ارباب الاحوال ، لا اصحاب الاقوال . وان ما يمكن تحصيله